كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

https://www.flsh.umi.ac.ma

eLEARNING

شعبة علم الاجتماع

مسلك الفلسفة

الإجازة الأساسية في الفلسفة

الفصل الثاني

دروس وحدة حكمة الشرق

الأستاذ خاليد الخطاط

k.khettat@umi.ac.ma

الموسم الجامعي: 2022/2021

المحور الأول: الإطار الإشكالي

شكل سؤال نشأة الفلسفة إحدى أهم الإشكالات الفلسفية التي حظيت باهتمام الباحثين والدارسين للفلسفة وتاريخها. فهناك من تبنى الموقف القاضي بنشأة الفلسفة، بما هي نمط من التفكير العقلاني في بلاد الإغريق، كما هو الحال مع أرسطو في كتابه (Metaphysics, 983-B-20) وجون بيير فرنان jean pierre Vernant من خلال كتابه (Les origines de la pensée grecque) ، وهناك من دافع على أن الإرث الفكري للشرق القديم كان له السبق في طرح مجموعة من الإشكالات التي عالجتها الفلسفة اليونانية والغربية بعدها، وهو ما خلخل الفكرة القائلة بهيمنة الفكر الديني في حكمة الشرق القديم كما أكدت على ذلك كل من دراسة كولر (الفكر الشرقي القديم) وما أورده من مواقف فيها لديوجينس اللايرتي Diogenes Laertius المقتبسة من مؤلفه (Lives of Eminent Philosophers) والدراسة النقدية المقارنة التي أنجزها جورج جيمس تحت عنوان "التراث المسروق".

وعليه، وفي ظل التعارض البين بين الموقفين، تروم هذه الوحدة تمكين الطالب(ة) من التعرف على أهم مكونات حكمة الشرق والسمات المميزة لها والتعرف على أهم الإشكالات الفلسفية التي تناولتها والكيفيات التي تم بها البحث فيها. مع إبراز أهمية وقيمة الإرث الشرقي ومساهمته في الفلسفة. الغربية والإسلامية. ولبلوغ الأهداف المسطرة لهذه الوحدة، ستوجه أنشطتها بالأسئلة الآتية:

- **ما هي أهم منابع حكمة الشرق؟**
- **ما طبيعة العلاقة التي جمعت بين المعطى الديني ومحاولات النظر العقلي التي وسمت حكمة الشرق؟**
- **ما هي الإشكالات التي بحث فيها العقل الشرقي القديم؟**

- **ما السمات المميزة لحكمة الشرق؟**
- **ما قيمتها كإرث إنساني في مسار تشكل نمط التفكير الفلسفي؟**

للإجابة عن الأسئلة المذكورة أعلاه بشكل يضمن مشاركة الطالب(ة) في سيرورة البناء المعرفي والمهاري، سيتم تنويع مداخل الاشتغال الفلسفي ودعاماته ومهامه انطلاقا من المحاور الآتية:

المحور الأول: الإطار الإشكالي: مدرسة السنكيا نموذجا: يروم هذا المحور إبراز أهمية التعرف على حكمة الشرق باعتبارها انعكاسا لأساليب الحياة والعيش التي وسمت الشرق القديم وثقافاته المتنوعة وأشكال تعامله مع مختلف الإشكالات النظرية والمشاكل العملية وطبيعة العلاقة التي جمعت المعطى الديني والجهد العقلي في البحث عن إجابات وحلول لها: إذا كانت ديانات الشرق القديم ديانات بشرية، وإذا كان إعمال العقل من صميم الفعالية الإنسانية، فإلى أي حد كان هذا المصدر المشترك "المعطى البشري" عاملا في تكامل الديني مع العقلي في سيرورة تشكل حكمة الشرق؟

المحور الثاني: السياق الديني والفكري لحكمة الشرق: ويعرض للسياق الثقافي الذي طبع الشرق القديم وأبرز الديانات "البشرية" وطقوسها التعبدية. كما سيعمل هذا المحور على إبراز الطابع التكاملي بين مرتكزات هذه الديانات ومحاولات التأمل في مشكلة المعاناة وما استلزمته من معرفة بالنفس والعالم..

المحور الثالث: الحكمة الهندوسية: وفيه يتم عرض موقف مدرسة "السنكيا" وأهم مرتكزاتها وخصائصها وتعاليمها وأهم الإشكالات التي نظرت فيها (النفس، العالم، المعرفة...) وسبل الخلاص التي أخذت بها "اليوغا".

المحور الرابع: الحكمة البوذية: وفيه يتم التعريف بالبوذية وتاريخها وأهم مرتكزاتها وخصائصها وأهم الإشكالات التي نظرت فيها (المعاناة ، النفس، السعادة،...) والتعاليم التي دافعت عليها.

خلاصات: وتروم استخلاص الخصائص المشتركة بين مختلف روافد حكمة الشرق التي تم العرض لها، وكذا قيمة هذا الموروث الإنساني وتأثيره في الفلسفة.

المحور الثاني: السياق الديني والفكري لحكمة الشرق

أولا: الهندوسية: الأصول والكتابات المقدسة

الهندوسية موضوع شاسع ومتعدد الروافد. يعود تاريخ الديانة الهندوسية إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة. إنها ديانة لا تتحدد بخط عقائدي واحد، والاعتقاد فيها إنما يعبر عن دعوة لتنبني أسلوب محدد في الحياة.

والهندوسية لفظ يطلقه غير الهنديين على الديانة الهندية. أما الهنديون فيستعملون اسم "**ساناتانا دهارما**" ويقصد بذلك في اللغة السنسكريتية "الحقيقة الأبدية" أو ينعتون ديانتهم باسم "**فايديكا** درارما" وتعني ديانة الفيدات أو النصوص المقدسة.

ويعود ظهور الفيدية إلى التلاقح الذي عرفته الثقافة الآرية لشعوب آسيا الوسطى التي انتقلت لتستقر بوادي السند في نحو عام 1500ق.م بباقي ثقافة الشعوب الآخرى. وهو ما أعطى شرارة بداية تشكل الثقافة الهندية.

لقد أولى الأدب الهندي اهتماما بالغا للفيدا التي تعتبر أقدم أصول الهندوسية. **والفيدا**[1] **Vedas** كلمة مشتقة من فيد **Vid** والتي تعني "المعرفة". وإذا كانت الهندوسية مزيجا من المعتقدات المتنوعة، فإن **الفيدا** شكلت مرجعا لها باعتبارها ديانة كنهوتية لا محلية. وهذا الغرض الديني الذي

[1]- الفيدا هو الكتاب الذي جمع الأساطري والأغاني والشعائر والترانيم والأشعار التي راجت خلال الغارات والغزوات القديمة. و«الفيدا» على هذا — هي الكتاب المقدس عند الهندوس. تلقاه البراهمة طبقة الكهنة أو القساوسة الذين انهموا بتفسير الفيدا. والبراهمي هو الذي يستطيع أن يشغل منصب الكاهن أو القسيس الهندوسي، أما البرهمية فهي الديانة التي يُنادي بها البراهمة، كهنة الهندوس من الطبقة العليا فيهم. أما البراهمان Brahmanas فهي الشروح على متون الفيدا التي تفسر معناها خصوصا ما تعلق بتقديم القرابين وآداب الطقوس وتوضيح المضمون الرمزي لأعمال الكهنة.

نما في أرض الهند هو الجزء الذي بقي حتى يومنا هذا حاضرا في طقوس الزواج وتقديم القرابين للموتى.

ويبقى إله الفيدا العمدة هو **أندرا Indra**، وهو إله حرب وملك الآلهة وقائدهم. يقول كولر: " أما **أندر Indra** ، فربما كان كبير الآلهة في عهد سابق، وهو الأكثر شبها بالبشر بين آلهة الفيدا. وهو باعتباره سيدا للصاعقة يهزم الأعداء، ويحمي شعبه، وهو يهزم قوى العماء والظلمة الكونية، ويفسح الطريق لأشكال الوجود الخلاقة. ولكن في المقام الأول، فإن أندرا الذي يرد ذكره في الريج فيدا أكثر من أي إله آخر، يرمز للشجاعة والقوة اللتين تمس إليهما حاجة البشر إلى مقاومة أعدائهم ولحماية العائلة والمجتمع".

فمن بين الآلهة الذين يحضون بعبادة أتباع هذه الديانة نذكر: آلهة السماء المشرقة (الديفاز Devas) والتي تبدو أنها مشتقة من جذور الكلمة اللاتينية (ديوسDeus) إله. وإله السماء الأب (هوديوس بيترDyaus Pitar) وهو زيوس الأب عند اليونان، وهو جوبيتير عند الرومان. (آلهة مرتبطة بالظواهر الجوية).

إن تأصيل **الفيدا** مضمن في كتبها المقدسة والتي تتكون من أربعة أسفار، يقول كولر عن قيمتها: "نصوص **الفيدا** هي أشعار حكمة. تشكل جوهر طقوس الهند المقدسة. وتحدثنا **الفيدا** ذاتها بأن هذه الأشعار عندما ترتل، وتنشد، ويتغنى بها، فإنها تمكن الخلق جميعا من المشاركة في حكمة الواقع الإلهي وطاقته. وينظر إليها على أنها نوع من المعرفة المرتبطة بالعمل القادر على فهر التجزئة والاغتراب في إطار عملية توحيد كل الكائنات، وملء الحياة بطاقة مقدسة". وتتكون الكتابات المقدسة للفيدا من أربعة أسفار:

الريج فيدا Rig Veda : وهو عبارة عن نصوص لأناشيد تمجد الآلهة. ويعرف أيضا باسم الفيدا النارية وهو ينقسم إلى قسمين: سفر الأدعية والصلوات والتراتيل الشعرية، وسفر ثان يضم التعاليم المرتبطة بالواجبات الدينية. يقول كولر في هذا السياق:

السمافيدا: وهي مجموعة موسيقية تصاحب تقديم القرابين. وتعرف أيضا باسم الفيدا الشمسية، وهي منقسمة إلى قسمين: القسم الأول يهم التراتيل الدينية والقسم الثاني يهم التعاليم والواجبات الدينية.

الياجور فيدا Yajur Veda: وهي عبارة عن نصوص إضافية مرتبة بحسب قيمة القرابين. ويسمى بالفيدا الهوائية، وهي نوعان: الياجورا فيدا البيضاء والياجورافيدا السوداء.

الإثرفا فيدا: ويعرف بسفر الفقراء، ويعود اسمه إلى أحد حكماء الهند يدعى "أثارا"ويتضمن قسمه الأول نصوصا للرقى السحرية والأدعية للاستغفار والتخلص من النفوس الشريرة. أما قسمه الثاني فهو عبارة عن مجموعة من شرائع وطقوس الديانة البرهمية[2].

إن قيمة هذه الأشعار لا تتحدد في كونها تشكل إطار لمخاطبة الآلهة أو لتقنين تأدية الطقوس الدينية أو ترانيم للتعبد، إن عمقها يتجلى في كزنها تقدم رؤى وتصورات عن الواقع ذاته. فلما كانت الآلهة رموزا لقوى الوجود، فإنها هي التي تخلق الحياة وتدمرها وتسيطر عليها، وكان الخلاص مشروطا بها. وبالرغم من أن الآلهة الفيدية كانت رمزا للوجود وقواه، فلم يقصد من وراء ذلك جعلها علة هذا الوجود أو خالقة له. يقول كولر في هذا السياق: "إن فكرة خالق منفصل عن الكون ذاته هي، في الواقع، فكرة غريبة عن الريج فيدا، فكل من العقل ومادة الكون ينظر إليهما على أنهما

[2]- جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة عدد 199، الكويت، 1995، ص. 45.

متضمنان في الوجود ذاته، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر. ولأن الوجود كان ينظر إليه على أنه عاقل، بحكم ما في مضمونه، فإن الكون قد نظر إليه باعتباره كلا منظما.".

وهناك كتب أخرى نذكر منها :كتاب الماهابهاراتا . وهو مؤلَّف من 200 ألف سطر. ويشتمل على حكم ورؤى ودين وقصص وبحوث قانونية، ويرجح أنه يرجع إلى أقدم عهد منذ القرن الرابع ق.م. إلى القرن الرابع ق.م. ومنه نقف على شيء من الفكرة السياسية الهندوسية بالرغم من أن هذه الكتابات ليست لها نفس السلطة التي تمارسها الكتابات المقدسة للفيدا السابقة الذكر. ومن الملاحم المعروفة في الهندوسية، نذكر ملحمتين من التراث القديم: ملحمة **الرمايانا Ramayana** وهي تعبير عن تاريخ راما، وملحمة **مهابارتا Mahabarata** التي تعبر عن ملحمة الهند الكبرى وتعرف أيضا بملحمة الأبناء الكبار لبهاراتا. والملحمتان معا تعرضان لمضامين أخلاقية ومضامين فلسفية كوسمولوجية. كما تعرض ملحمة **الرمايانا** قصة الأمير راما الذي قاد معركة لتحرير **سيتا Sita** زوجته من قبضة رافانا **Ravana** ملك شيطان الذي هُزِمَ. وهذه القصة تعبير استعاري لمسألة فلسفية صرفة هي النفس الإنسانية وصراعها مع الحواس.

ثانيا: سمات الحكمة الهندوسية: الفيدا نموذجا:

على امتداد الزمان عسرت لغة «الفيدا»، وغمضت معانيها على المتأخرين. وما زادها تعقيدا ما ألحق بها من متون وشروح مما دفع بالبراهمة إلى التوفيق بن الشروح المتباينة، فظهر هذا في كتاب جديد اسمه «براهمانا» الذي ألحق به ملحق اسمه «اليوپانشاد»[3] في 500ق.م. وهو ذو نزعة صوفية داعية إلى طهارة القلب وصفاء النفس وأن المعرفة باعتبارها أساس التحرر، وفيه أشياء أخرى تعد إلغاءًا لبعض شعائر البراهمانا .

3- اليوبانشاد كلمة مؤلفة من مقطعين في الأصل: اليوبا وبقصد بها "بالقرب من" و "شاد" وتعني "الجلوس"، وهي تعني في مجملها الجلوس بالقرب من المعلم. وكتبها تحوي تقريبا 108 محاورة ظهرت في الفترة ما بين 800 ق.م و500 ق.م.

هذا والفيدا والبراهمانا والأوبانشاد هي كتب تقرأ فيها تعدد الآلهة والإلهات وتنوع اختصاصاتها ونزعات وحدة الوجود والحلول. وهذهء الكتب الثلاثة أقرب إلى أن تكون نظاما اجتماعيًا يقبل بتعدد العقائد. يقول كولر موضحا الطابع الذي يميز الأوبانشاد عن الفيدا والبراهمانا:

«الأقسام الأخيرة من الفيدا، والتي تعرف بالأوبانيشاد ذات طابع فلسفي أكثر من الأجزاء المتقدمة، ذلك لأنها تخلو من قيود الحقيقة المقررة سلفا، وهي تتضمن اعترافا بالحاجة إلى تقديم دليل على دعواها. كما أنها نعنى بالمبادئ الأساسية للوجود. ورغم ذلك فهي ليست فلسفة بالمعنى الدقيق لها اللفظ، ذلك أنها تمضي قدما، دون تحليل شكلي لمعايير الحقيقة وللعلاقة بين هذه الأخيرة والبرهان، وفي أغلب الأحوال فإن التجربة الشخصية لما يتم طرحه تؤخذ على أنها برهان مقنع على صحة الدعوى، ولكن ليست هناك أي محاولة لإيضاح الكيفية التي يمكن بها اعتبار أنواع معينة من التجارب أدلة على دعاوى خاصة بالواقع. وبينما يوجد اعتراف عام بأن وجهات النظر المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة، فإننا نغالي كثيرا إذا قلنا إن ذلك يعني أن العقل هو الذي يحدد صدق أو زيف وجهات النظر، ذلك أن مبادئ المنطق والعقل لم يثبت نجاحها من الناحية الصورية. وبالتالي فإن الأوبانيشاد تميل إلى تأكيد أهمية مضمون رؤية الحكيم أكثر من ميلها إلى التشديد على الوسائل التي يمكن عن طريقها تبرير هذه الرؤية. والدعاوى الواردة في نصوص الأوبانيشاد ينظر إليها باعتبارها تقارير عن تجربة الحكماء، وليست نظريات فلسفية تنتظر التبرير،

فتجربة الحكماء هي التي تقدم البرهان على صدق الدعاوى التي قدمت»[4].

إن الغاية العملية التي تنطوي عليها الحكمة الهندوسية تشكل جوهرا لكل بحث في الاعتبارات العقلية التي لا تتخذ سوى إطارا لإيجاد الحلول، بمعنى أن التصورات المبثوثة في كتابات الفيدا التي تمنح للنفس والواقع والمعرفة، إنما هي تسويغ لهذه الحكمة. وعليه، وجب فهم غايات هذه الحكمة باستحضار طابعها العملي المتمثل في السمات الآتية:

- تقدم الحكمة الهندوسية نفسها كأسلوب حياة.
- تكتسي هذه الحكمة قيمتها من خلال قدرتها على تحسين الحياة.
- استئصال أسباب المعاناة لتحقيق أفضل حياة ممكنة.

ترى هذه الحكمة أن الخلاص من المعاناة رهين بفهم سبب المعاناة ذاتها والذي يُرْجَعُ لوجود هوة بين ما يكونه الإنسان وما يملكه أو بين ما يريد أن يكونه وما يريد أن يملكه. بالمحصلة المعاناة هوة حاصلة بين الواقع والمأمول، والحل يكمن في المواءمة بين ما يكونه المرء وما يملكه من جهة، وما يريد ملكه من جهة ثانية. مثلا، الفقير الذي يرغب في امتلاك الثروة، عليه أن يجتهد في تحصيلها أو أن يوائم رغباته مع ما يمكنه فعله. وهكذا سيتغلب الفقير على رغبته بالضبط والانضباط والسيطرة على النفس باعتباره مدخلا للسعادة. فالرهان هاهنا على الذات لا على الانصياع وراء الرغبات. وهذا يتطلب معرفة هذه الذات.

4- جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة عدد 199، الكويت، 1995، ص. 49-50.

المحور الأول: الإطار الإشكالي: مدرسة السنكيا نموذجا:

مدرسة سنكيا: النفس والعالم: من إقرار الوجود إلى وضع الحدود

❖ تعتبر مدرسة سنكيا من أقدم المدارس التي نظرت في علاقة النفس باللانفس.

❖ لا يعرف إذا ما كانت هذه المدرسة قد ترعرعت في أحضان الأوبانيشاد أنها تطورت كحكمة بديلة.

❖ سنكيا: تعني التميز المتولد عن التحليل للواقع وموضوعاته.

❖ نهضت بمهمة تحليل العلاقة بين النفس (كقدرة عارفة) وأشياء العالم كموضوعات للمعرفة (واقع).

تحليل علاقة العالم بالنفس
العالم متغير
النفس عارفة

إلام ترد سنكيا التغير في العالم؟
السببية كمبدأ تسمى بـ: ستكاريفادا وتعني:
توجد النتيجة سلفا في السبب
نكران وجود النتائج يعني نكران وجود العالم
النتيجة تحويل للسبب
?
اعتراض ممكن!!؟
إذا كان السبب تحولا وليس علة وجود شيء جديد ، فهذا يقضي بأن السبب الفاعل ليس ضروريا ما دامت النتيجة متضمنة في السبب؟
مبدأ عام:
كل ما هو كائن وما سيكون له أسباب

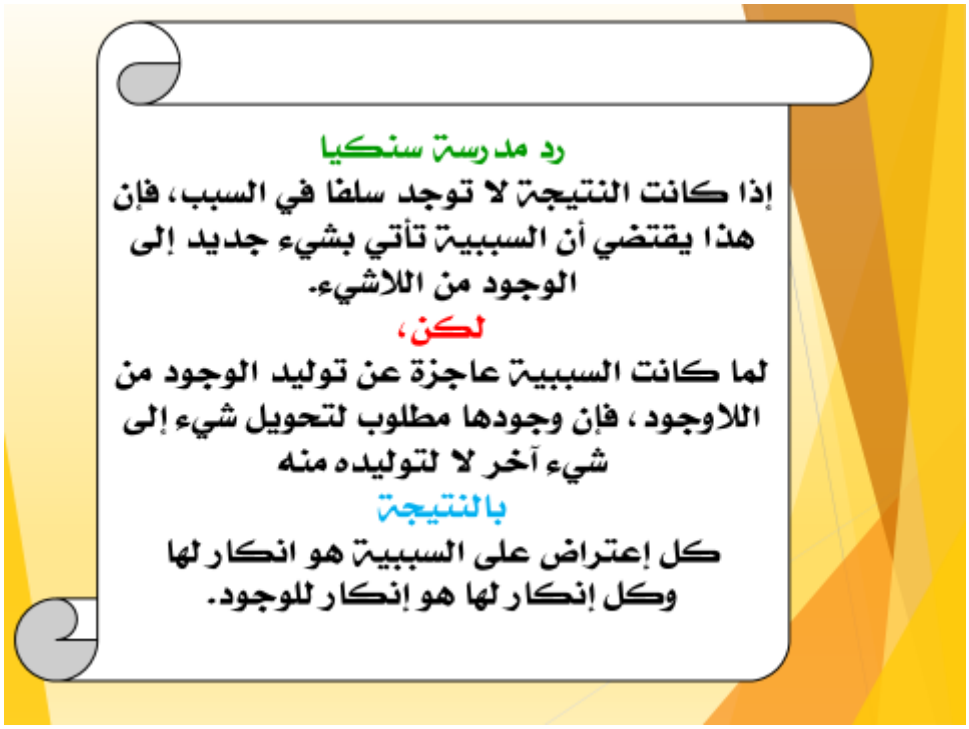
رد مدرسة سنكيا
إذا كانت النتيجة لا توجد سلفا في السبب، فإن هذا يقتضي أن السببية تأتي بشيء جديد إلى الوجود من اللاشيء.
لكن،
لما كانت السببية عاجزة عن توليد الوجود من اللاوجود ، فإن وجودها مطلوب لتحويل شيء إلى شيء آخر لا لتوليده منه
بالنتيجة
كل إعتراض على السببية هو انكار لها وكل إنكار لها هو إنكار للوجود.

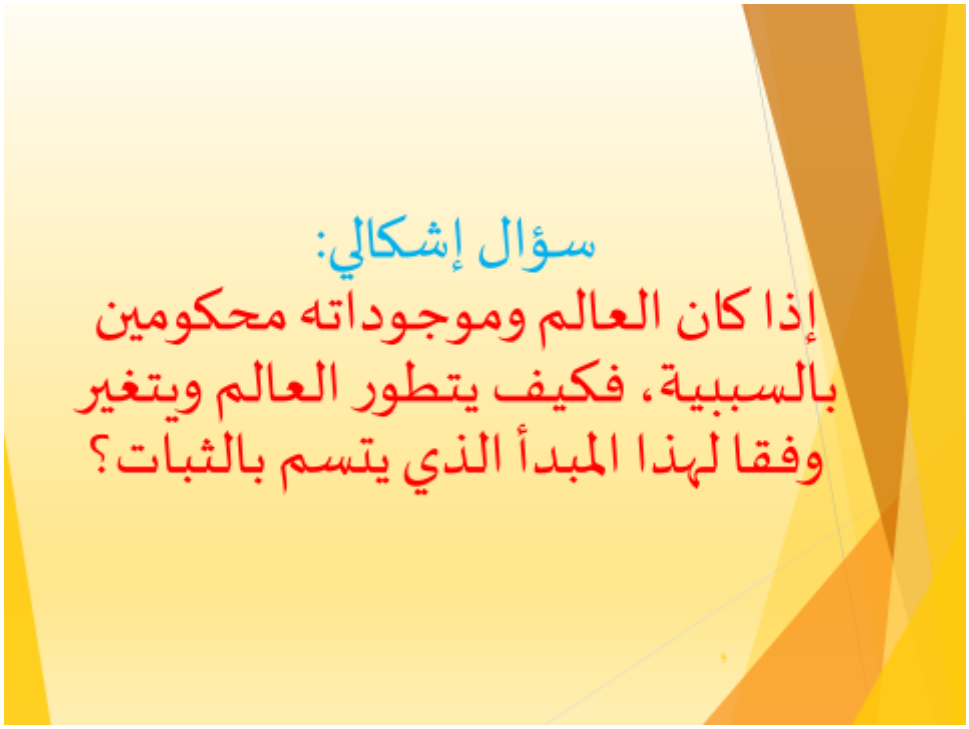
سؤال إشكالي:
إذا كان العالم وموجوداته محكومين بالسببية، فكيف يتطور العالم ويتغير وفقا لهذا المبدأ الذي يتسم بالثبات؟

بفضل السببية أثبتت مدرسة سنكيا وجود العالم [النتيجة في السبب]
المقدمة الأولى:
العالم الماثل موجود تايجة تغيرات سابقة وفقا لمبدأ السببية
المقدمة الثانية:
التغير ليس توليدا لشيء جديد
العالم يتطور بفعل التحويل لما هو موجود أصلا
الوجود الأول للعالم له علة مادية نهائية أولى
البركرتي له سمات مختلفة بفضلها يتحول لأنواع مختلفة من الأشياء

المحور الثاني:
النفس : مدرسة «سنكيا» نموذجا:

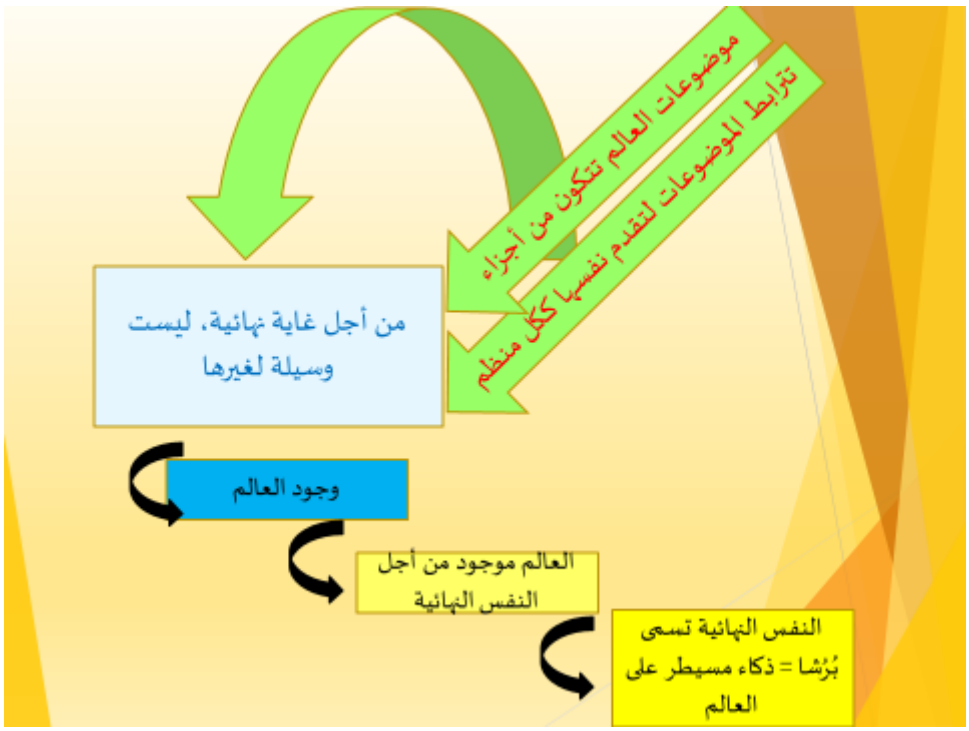

من خصائص النفس النهائية «برشا»:

- مختلفة عن عالم بْرَكْرِتِيْ؛
- ملاحظة ومتأملة؛
- لا متحركة،
- مستقلة عن العالم؛

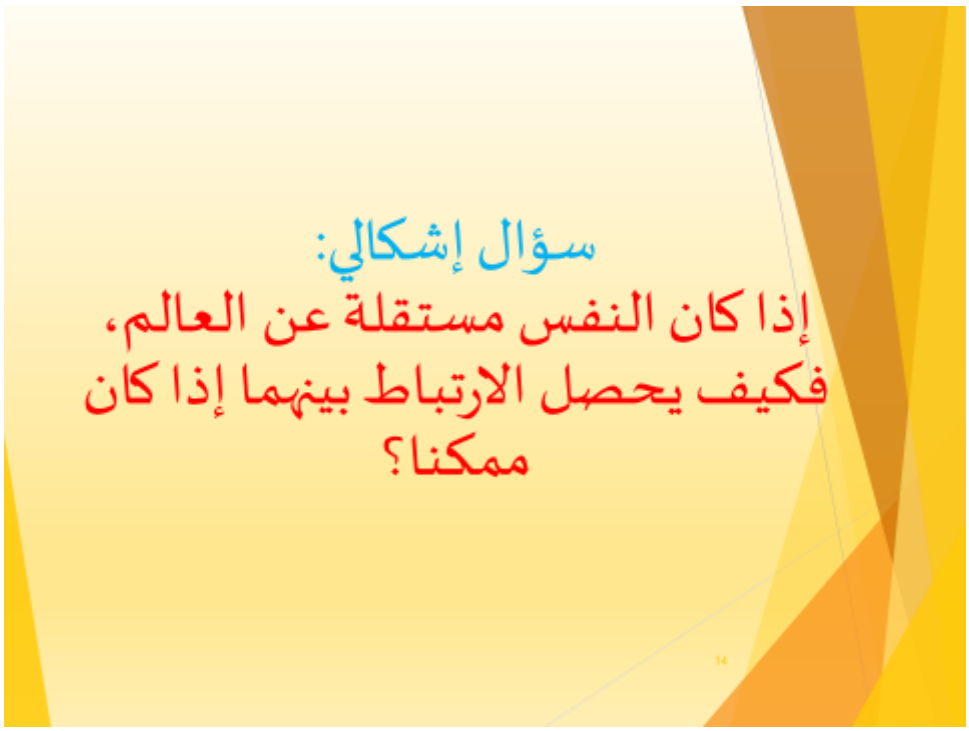
سؤال إشكالي:
إذا كان النفس مستقلة عن العالم، فكيف يحصل الارتباط بينهما إذا كان ممكنا؟

❖ ترى سنكيا أن الإنسان في غالب الأحيان ما يقع في فخ الخلط بين النفس والعالم.
❖ سبب هذا الخلط هو الجهل.
❖ التمييز هو سبيل المعرفة.
❖ برشا كضوء مشرق والعالم كحوض ماء لا يعدو أن يكون سوى عاكسا لهذا الضوء.
❖ وعليه، برشا إشراق والضوء المنعكس يقدم نفسه بفعل التوهم على أنه برشا.
❖ إننا أمام النفس النهائية «برشا» والنفس الإمبريقية المضاءة.
❖ هذا الضوء العظيم هو ما يمنح الشخص القدرة على السمع والبصر والرغبة والتفكير...
فما الطريق نحو الخلاص من الجهل؟

❖ علاقة النفس النهائية بالنفس التجريبية والعالم ينبغي أن تكون مضبوطة على أساس الحكمة.

ولكن، كيف يمكن نيل هذه الحكمة؟

❖ المعاناة سببها الجهل؛

❖ المعاناة تعبير عن مطابقة خاطئة بين النفس واللانفس.

❖ لدحر المعاناة وجب دحر القوى الفاعلة في استدامة الجهل.

ما سبيل خلاص النفس من معاناتها
المترتبة عن تفاعلها مع العالم؟

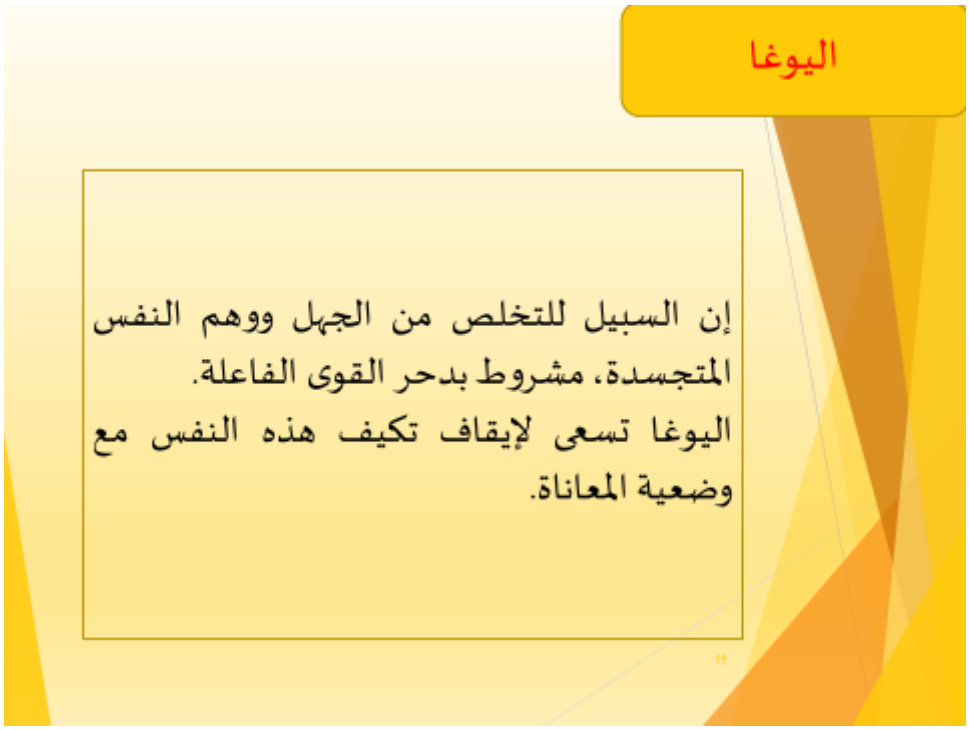
اليوغا
إن السبيل للتخلص من الجهل ووهم النفس المتجسدة، مشروط بدحر القوى الفاعلة.
اليوغا تسعى لإيقاف تكيف هذه النفس مع وضعية المعاناة.

اليوغا: طريق الخلاص
كوابح أخلاقية
لتوجيه إرادة الشخص وأفعاله توجيها صحيحا وجب:
التمتع بالحب الكوني؛
النوايا الحسنة؛
اجتناب السرقة؛
اجتناب الطمع؛
...
المراقبة الروحية
الحرص على طهارة الأفعال؛
التمسك بالقناعة؛
الحرص على الامتثال لحكمة حكماء الفيدا؛
قراءة نصوص اليوغا؛
التعبد؛
...
التمارين البدنية والعقلية
التدرب على الأوضاع المنصح بها؛
التنفس العميق المنظم؛
سحب الحواس؛
التركيز
التأمل؛
...

المحور الرابع: الحكمة البوذية

يعتقد أن ظهور التقليد البوذي في بلاد الهند كان حوالي **528** ق.م تقريبا. يعتبر **سِدْهَرْتا جوتاما Siddharatha Gautama** (**563** ق.م – **483** ق.م) الذي سار يعرف باسم **بوذا The Buddha** بعدما سعى جاهدا لاستنارة الناس وتعريفهم بحقيقة **المعاناة** (الدوكا) وأسبابها وسبل الخلاص منها.

يحكى أن قصة بوذا مع المعاناة كانت محكومة بالصدفة المتكررة، فباعتباره ابن الأسرة الحاكمة حينها لإمارة هندية، حاول أبوه جاهدا استبعاده عن ملاقاة شرور العالم القاسي والتعرف على معاناة الإنسان فيه يقول كولر: «**تفيد الروايات التي قبلها الناس، على نطاق واسع، فيما يتعلق بحياة بوذا التاريخي جوتاما، أنه تلقى دفعة قوية فورية باتجاه التأمل والتركيز على مشكلة المعاناة من خلال لقاءات درامية مع المرض والشيخوخة والموت والزهد. وكان أبوه، وهو حاكم إمارة مزدهرة، قد قيل له إنه إذا ما عرف ابنه شرور العالم، فسوف يتخلى عن المملكة، ويصبح زاهدا ومعلما عظيما للبشر. وقد عقد الأب، الذي لم يكن يرغب في فقدان ابنه على هذا النحو، العزم على القيام بكل شيء لإبعاده عن العالم القاسي. وبناء على هذا فقد قام الملك بإمداده بكل الثروة والمباهج، التي يمكن للمرء أن يرغب في الحصول عليها من الحياة، القصور، الخادمات الشابات الجميلات، القائمات بالترفيه عنه، زوجة جميلة، وذلك لحمايته من التعرض لمعاناة العالم. وصمم الأب على أن جوتاما ينبغي أن يظل جاهلا بالأحزان التي تحيق**

بالبشر». وفيما يلي نعرض لهذه القصة الدرامية[5] في شكل حلقات لتسعفنا على استخلاص أهم العلامات التي ستشكل أساس مذهب بوذا وتعاليمه:

اللقاء الأول مع المعاناة

«... ولكن ذات يوم، وعندما كان الشاب **جوتاما** يتريض بعربته التي تجرها الجياد، رأى السيد الشاب رجلا عجوزا ((في انحناء سقف مائل، وقد استبد به العجز، وانحنى على عصا، متعثرا في مشيته، وقد حاقت به الأوجاع، وأوغل مبتعدا عن ريعان عمره)) وعندما رآه **جوتاما**، سأل سائق عربته عن السر في أن ذلك الرجل ليس كالرجال الآخرين، فأبلغه السائق بأن الرجل عجوز، لكن جوتاما لم يتفهم هذه الكلمة، حيث **لم يسبق أن كانت له خبرة بالشيخوخة**، فأوضح له سائق العربة أن هذا الرجل قد اقترب من النهاية، وأنه سرعان ما يموت، وتساءل السيد الشاب، **عندما بدأ الفهم يزعج روحه ويضايقه**:

– ولكن، أيها السائق الطيب، هل أنا معرض **للشيخوخة** أبضا، وما كنت قد اقتربت منها في الماضي قط؟ أثارت الإجابة فزع **جوتاما**، وشرع منذ ذلك الوقت في التفكير في معاناة الشيخوخة: -أنتم يا مولاي، ونحن أيضا، جميعنا من نوع قُدِّرَ عليه أن يشيخ، ولا مَنْجاةَ لنا من **الشيخوخة.**»

<u>العلامة الأولى</u> التي يمكن استقاؤها من هذا الحدث الأول تتمثل في الخبرة الأولى لجوتاما بخصوص المعاناة والتي ستضعه في وضع يختلف فيه التوازن المعرفي والانفعالي الذي نعم به الشاب. والسؤال الآتي يجسد هذا الوضع أحسن تجسيد:

كيف يمكن التنعم بالسعادة في رغد حياة القصر ومسراتها مع العلم اليقين بوقتيتها؟ وأن معاناة الشيخوخة قابعة بانتظار الجميع؟

[5]- هذه القصة تم اقتباسها من المصدر الآتي: جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة ع.199، الكويت، 1995، ص. 180-183.

اللقاء الثاني مع المعاناة

«...وبعد عدة أيام من هذه الحادثة، كان جوتاما في طريقه مرة أخرى إلى الحديقة، عندما صادف ((رجلا مريضا، وقد استبد به المرض، وأغرقه بوله، فحمله البعض، وألبسه آخرون ملابسه)).

ولدى رؤية هذا المشهد، سأل جوتاما سائق عربته عما فعله هذا الرجل بحيث اختلف عن الآخرين، فأوضح السائق أن الرجل مريض، وأن هذا يعني أنه لا يبعد كثيرا عن النهاية، وأنه قد لا يشفى. ومرة أخرى تساءل جوتاما:ولكن، أيها السائق الطيب، هل أنا معرَّض للسقوط مريضا، ألم أخرج من نطاق قبضة المرض؟.»

العلامة الثانية التي تستشف من هذا المشهد، وبعد الخبرة الأولى بالمعاناة انتقل الشاب إلى مرحلة التفكير في معاناة المرض. يمكن أن نتوقع ما دار في ذهن جوتاما على النحو الممكن الآتي: "أنا أيضا عرضة للمرض، لن أسلم منه مهما هربت."

اللقاء الثالث مع المعاناة

«...وبعد عدة أيام، وبينما كان جوتاما ينطلق بعربته إلى الحديقة شاهد ((حشدا عظيما من الناس، يرتدون ثيابا مختلفة الألوان، وهم يعدّون محرقة جنائزية)). ولدى مشاهدته هذا المنظر سأل سائق عربته:
((لماذا أقبل كل هؤلاء الناس الآن معا في ثياب مختلفة الألوان، وعكفوا على إعداد تلك الكومة)).
وعندما قيل له إن هذا يرجع إلى أن أحدهم قد مات، طلب جوتاما رؤية الجثة، ليكتشف حقيقة الشيء الذي يقال له الموت. وحينما تم إبلاغه بأمر الموت، سأل، كما في السابق:
ولكن هل أنا بدوري عرضة للموت، ألم أخرج من نطاق قبضته؟ ألن يواصل أي من الراجا (الملك) والراني(الملكة) أو أي من أقاربي الآخرين رؤيتي بعد ذلك، وهل تُقَدَّرُ لي رؤيتهم مرة أخرى؟
ومرة أخرى كانت الإجابة:

- أنتم يا مولاي، ونحن أيضا، جميعنا عرضة للموت، فنحن لم نخرج من نطاق قبضته.»

العلامة الثالثة التي تستقى من مصادفة واقعة الموت، وبعد الخبرة الأولى بالمعاناة والتفكر فيها انتقل الشاب إلى التفكير في مصير الإنسان من خلال حدث الموت الذي ينهي وجود الإنساني. ويمكن أن نتوقع ما دار في ذهن جوتاما على النحو الممكن الآتي: "إذا كانت الموت قدرا محتوما فما قيمة الحياة الفانية؟

اللقاء الرابع مع الناسك:

«...وبعد عدة أيام من رؤية الميت، كان جوتاما يمضي مجددا بعربته إلى الحديقة، ورأى في الطريق رجلا حليق الرأس متنسكا، يرتدي ثوبا أصفر، ويبدو قانعا وفي سلام مع نفسه. وعندما علم جوتاما من سائق عربته أن هذا الناسك هو شخص يقال إنه ((مضى قدما)) استبد به الفضول لمعرفة ما يعنيه هذا التعبير. وعندما اقترب من الناسك سأله:

-ما الذي فعلته، أيها المعلم، بحيث إن رأسك إذا مهتلفا عن رؤوس الآخرين، وملابسك مغايرة لملابسهم؟.

-إنني، يا مولاي، شخص مضى قدما؟.

-ما الذي يعنيه هذا أيها المعلم.

-إنه يعني، يا مولاي، كون المرء ضليعا في الحياة الدينية، ضليعا في الحياة المسالمة، ضليعا في الأعمال الطيبة، ضليعا في السلوك الجدير بالتقدير، ضليعا في اللاأذى، ضليعا في الشفقة على كل الكائنات.

ولدى سماعه هذه العبارة، أمر جوتاما سائق عربته بالعودة إلى قصره، قائلا:

-أما أنا فسأبقى هنا أقص شعري، وأرتدي الثوب الأصفر، ولأمضي قدما من الدار إلى حال التشرد.»

<u>العلامة الرابعة</u> التي يشي بها اللقاء بالناسك تتمثل في كون المعاناة ليست كلها حتمية، فإذا كانت الشيخوخة والمرض والموت معاناة حتمية، فإن العيش بسلام واطمئنان أمر ممكن.

. ويمكن أن نتوقع ما دار في ذهن جوتاما على النحو الممكن الآتي: "إذا كانت المعاناة في بعض أوجهها حتمية وبعضها الآخر غير ذلك، فما السبيل للخلاص منها؟ أي ما السبيل للاستنارة؟

بناء على هذه التجربة مع المعاناة، وجد جوتاما نفسه مدعوا للبحث في حقيقة المعاناة لاكتشاف سبل وقفها. ويمكن رسم المسار الذي قطعته هذه التجربة على النحو الآتي:

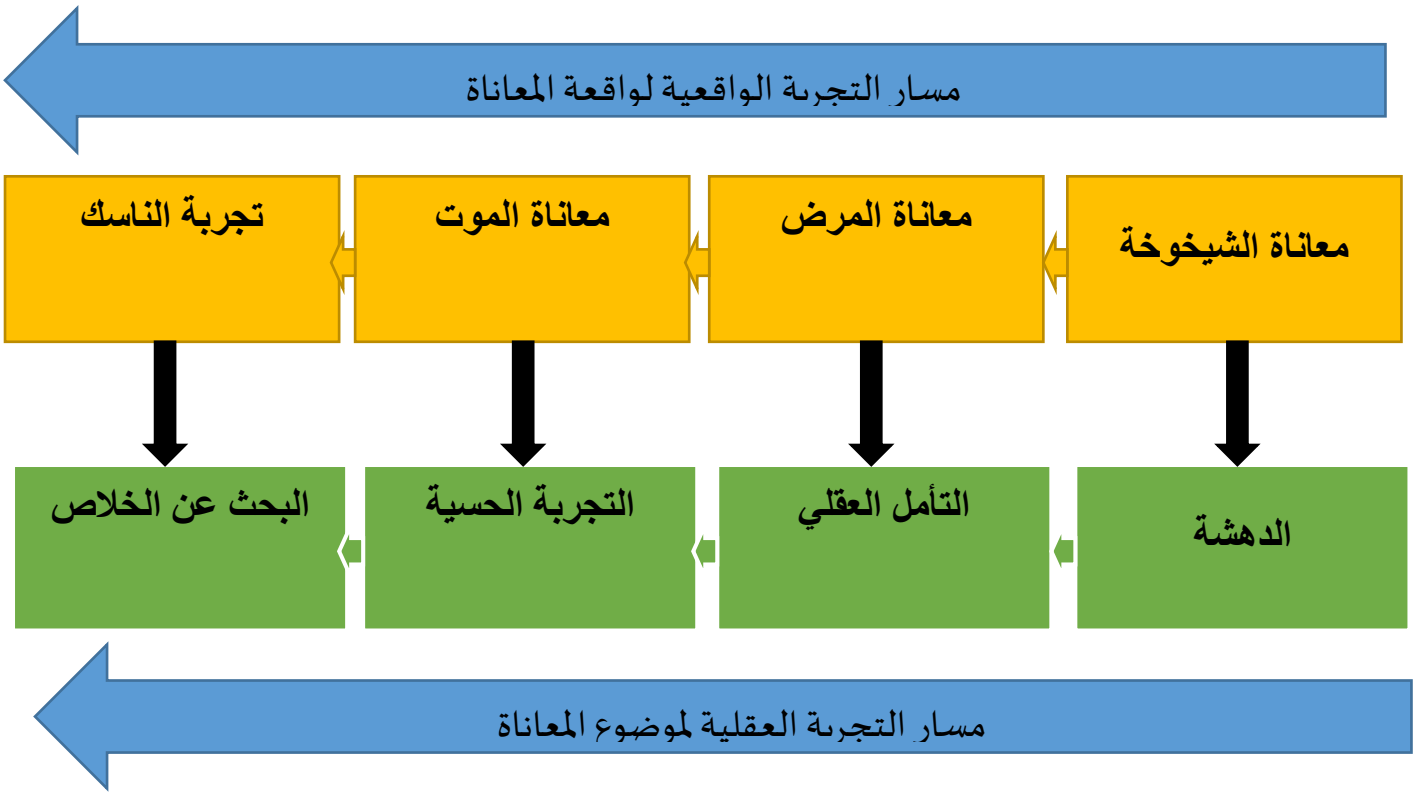

بعد جهد جهيد، وبعد سنوات من التقشف، عاش جوتاما "بوذا" حياة الباحث عن الحقيقة متحررا من الملذات وحياة الترف، مبتعدا عن الاهتمامات السياسية. فبعدما اعتقد أبوه أن استدامة حالة الجهل بالمعاناة سيكون بمثابة خلاص من كل معاناة، سار بوذا، بعد خبرته للمعاناة، لتوسل طريق المعرفة والاستنارة بالبحث في حقيقة المعاناة وأسبابها وسبل القضاء عليها.

بالرغم من الآمال التي عقدها بوذا على معلمي اليوغا في تمكينه من حلول مقتعة للخلاص من المعاناة، إلا أنه وجد في طرقهم حلولا مؤقتة لا تضمن استدامة الطمأنينة. فالغشية لا تعدو أن تكون سوى تعليقا مؤقتة للشعور والوعي بالمعاناة مما يجعلها غير قادرة عاى تمكين النفس من الإحساس بالسلام الداخلي في حالة الوعي.

بعد الوقوف على قصور طريقة اليوغا، عقد جوتاما العزم على عيش تجربة الطريقة الدينية الموصية بالزهد والتقشف لكبح النفس وضبط الجسد والتحكم في الانفعالات لاعتبارها أسبابا للمعاناة. فبالرغم من انضباط جوتاما لتعاليم هذه الطريقة، إذ أنه كان يجوع نفسه، وإذا أكل لا يشبع، حتى أنه بلغ شفا الموت ليدرك أن هذا المسلك لا يسكت صوت الانفعالات ولا يولد معرفة متبصرة بالمعاناة ولا يؤدي إلى السلام والسعادة. فكما أنه عاش الترف حتى أنساه المعاناة، وعاش الزهد حتى كان على وشك مفارقة الحياة، قرر أن يعثر على طريق وسطي يمكنه من ضبط مشاعره وفقا للاستنارة الدائمة التي قال عنها في موعظته: «... هكذا كانت الرؤية والمعرفة والحكمة والعلم والنور، التي أشرقت في داخلي عن الأشياء التي لم يُسْمَعْ بها من قبل»[6]. ويمكن عرض أهم مبادئ ومرتكزات هذه الاستنارة على النحو الآتي:

- **<u>استبصار العالم والوجود:</u>** الوجود باعتباره عملية تغير ناتجة عن التفاعل بين موجوداته. فلا شيء يبقى على حاله. وهو مبدأ عام يحكم كل الموجودات. وعليه فمعاناة المرض والشيخوخة والموت ما هي إلا تمظهرات لهذا التغير.
- **<u>السيطرة على أسباب المعاناة:</u>** رقم عجز الشخص عن السيطرة على الأسباب المتحكمة في الحياة، فإن مسؤوليته تتحدد في السيطرة على ما يدخل في نطاق قدرته. فبعض مظاهر المعاناة سببها الأفكار الخاطئة التي نحاكم بها الوجود والأشخاص، والأفعال المشينة المليئة بالحقد والكراهية...

[6] - John M. Koller and Patricia Koller, *A Sourcebook in Philosophy*, New York : Macmillan, 1991, pp. 195-196.

- **<u>توجيه البعد الأخلاقي:</u>** ضبط الانفعالات والمشاعر السلبية والاستعاضة عنها بمشاعر الحب والتعاطف.

هذه المرتكزات نجدها مبثوثة في الحقيقة الرباعية التي علمها بوذا في أولى مواعظه في حديقة الأيائل بعد وقت قصير من استنارته. وهي:

- حقيقة ماهية المعاناة دوكا
- حقيقة النشوء المشروط للمعاناة
- حقيقة إمكان إزالة المعاناة بإزالة شروطها
- حقيقة أن إزالة الشروط المولدة للمعاناة هي اتباع الطريق الوسطي.

خلاصة

من خلال النماذج التي قدمنا لها في معرض هذا الدرس "الأوبانيشاد، سنكيا، اليوغا، البوذية"، يظهر أن حكمة الشرق تقاسمت على اختلاف مشاربها وقناعاتها مجموعة من الخصائص التي تميزها وتجعلها حكمة لصيقة بالحياة دونما أن يكون المطلب النظري غاية غاياتها على خلاف الفلسفة الغربية التي جعلت من الحقيقة ذاتها سمة مميزة، ولعل ما طبيعة المشكلات التي تناولتها حكمة الشرق كانت هي نفسها منبثقة من الحياة البسيطة والمعيش اليومي.

اعتبرت مشكلة المعاناة مشكلة مشتركة بين مختلف المدارس والنماذج التي عرضنا لها، وقد سارت على نهج واحد في معالجتها، إذ كان فهم حقيقة المعاناة وأسباب حصولها شرطا للبحث عن سبل الخلاص منها. لقد شكل مطلب الخروج من حالة الجهل إلى حالة المعرفة روحا لمسار التخلص، فكل النماذج ركزت على ضرورة معرفة النفس الإنسانية ومعرفة العالم والوجود الذي تتفاعل معه ليستقيم طريق تحصيل الخلاص. والخطاطة الأتية تبين العلاقة التفاعلية والتكامل بين مشكلة المعاناة والمعرفة والنفس والعالم:

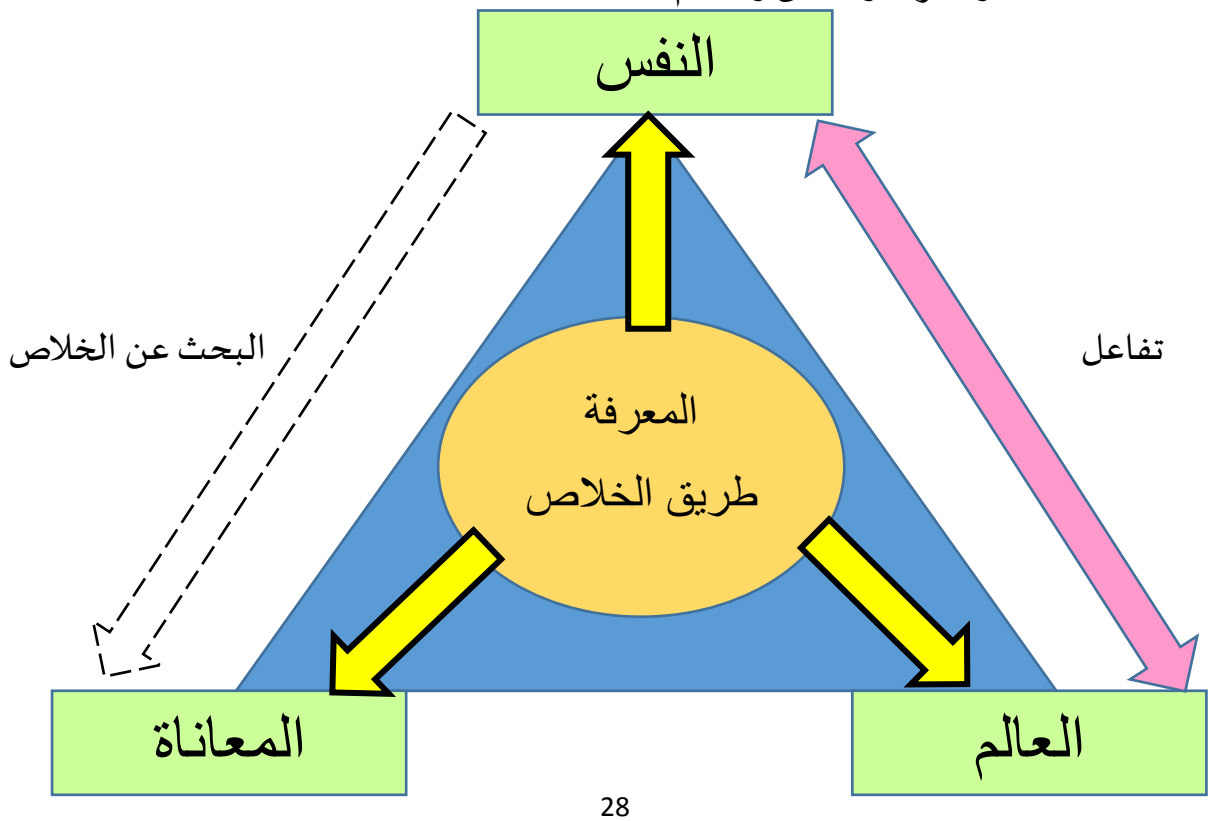

فمهما كان حكمنا بخصوص مساهمة هذا الموروث الإنساني في مسار تشكل التجربة الفلسفية، فإن إسقاط تصورات الفلسفة الحديثة ومعاييرها على حكمة الشرق بغاية تصنيفها لن يفيد إذا ما استحضرنا خصائص هذه الأخير. وعليه يبقى هذا الموضوع جديرا للبحث والدراسة.

الببليوغرافيا المعتمدة:

- جون كولر، **الفلسفات الآسيوية**، ترجمة نصير فليح، المنظمة العربية للترجمة، تونس. 2012.
- جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة عدد 199، الكويت، 1995.
- جفري بار ندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة عدد 173، الكويت، 1993.
- سهيل بشروئي ومراد مسعودي، **تراثنا الروحي**: من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي، بيروت، 2011.
- John M. Koller and Patricia Koller, *A Sourcebook in Philosophy*, New York : Macmillan, 1991,
- Walpola Rahula, *L'Enseignement du Bouddha d'après les textes les plus anciens*,LeSeuil, 2004.